على وقع مالك بن نبي .. من سمات التخلف إلى بذور الحضارة..

د. محمد بن موسى بابا عمي

الجزائر

تعرفت على "مالك بن نبي" في يوم من أيام الله، ولما أتجاوز التاسعة عشر من العمر، طالبا في ثانوية "مفدي زكرياء" أوائل الثمانينيات من القرن المنصرم، وكان لأستاذ اللغة العربية "ابن ساحة" الفضلُ في ذلك، ولعلّي سمعت اسم "مالك بن نبي" وتعجبت من هذه الصيغة، في إحدى دروس اللغة العربية التي كان أستاذي يديرها بنجاح وإبداع منقطع النظير.

وأول كتاب قرأته هو "مذكرات شاهد للقرن" باللغة العربية، مرحلة "الطفل" ثم "الطالب"، ولهذا الاختيار دافع معقول هو أنني وأنا الدارس في شعبة الرياضيات وددت الدخول في شعبة أدبية فكرية اجتماعية، ولم يكن المحيط يحبذ مثل هذا "النزول" من مستوى هو الأعلى إلى مستوى – في عين الجميع – هو الأدنى... غير أني وجدت في مالك بن نبي الأنموذج والمثال، فهو المهندس الذي تحول من "المعادلات الرياضية" و"الرسوم الصناعية" إلى "النظريات الحضارية" و"المعالجات الفكرية"... فصادف ــ بهذا ــ هوى في نفسي، وأمدَّني بالراحة والطمأنينة، وكنت دوما أفتخر بهذا التشابه، وإن لم يكن عميقا، إلاَّ أنَّ التشبُّه بالكرام فلاح... ثم بعد توقفي سنة 1988 من جامعة باب الزوار، والتحاقي بالمعهد العالي لأصول الدين، في الجامعة المركزية، شاء الله أن تُفتح نافذة الحرية على كتب مالك بن نبي، مع الانفتاح السياسي، وأن تدخل عناوينه إلى السوق الجزائرية، باللغة العربية، فاشتريتها من مكتبة "العالَم الثالث" بشارع العربي بن مهيدي، بأثمان تبدو اليوم بخسة: من 30 إلى 60 دج للعنوان الواحد... فالتزمت مطالعتها كاملة، ووجدت فيها الملاذ والمأوى لعالم الأفكار الذي غاب كلية عن ساحة المعهد، وحل محله الطرح التراثي الكلامي المذهبي المسطح، فكانت جامعتي هي "مالك بن نبي" لا "المعهد العالي"... إلى جوار بعض الأسماء المعتبرة مثل: محمد إقبال، وأبو العلى المودوي، ووحيد الدين خان.... إضافة إلى أساتذتي الآخذين

Mokarabat

بيـــدي، الـــدكاترة: محمـــد ناصـــر، ومحمـــد الزينـــي، وأحمـــد موســـاوي.. وفي بدايات التسعينيات عرض عليَّ ناشرٌ لبنانيٌّ قائمة صادرات دار الفكر، وهو صاحب دار الملكية بالجزائر، وطلب مني وضع علامة على العناوين التي يترجح رواجهـا فـي الجزائر، فلم أفكر طويلا، حتى وضعت العلامة على جميع مؤلفات مالك بن نبي، وما هي إلا أشهر حتى غطى اسم مالك بن نبي أرفف المكتبات في الجزائر، التي طالما طاردتـه، وأبعدته، وتنكرت له...

وكنت بين الحين والحين أعود إلى ابن نبي لفهم ظاهرة، أو لتفسير أزمـة، أو لمراجعـة فكرة... وبخاصة مع تصاعد الفتن في الجزائر، وضياع الأمل في "جزائر عزيزة متمكنة قويـة"، وتعـدد مسـتويات الأزمـات وتنوعهـا: محليـا، ووطنيـا، ودوليـا... غير أنَّ العجيب حقا، في هذه الأيام، وقد عقدت العزم على إعادة مطالعة جميع العنـاوين التي بين يدي مما ألف ابن نبي... والعجيب حقا أنني اكتشفت في أرفـف معهـد المنـاهج مذكرات شاهد للقرن باللغة الفرنسية، نشر "سمر للنشر والتزيع" سنة 2006...، ومـا إن قارنتها بالنسخة العربية، حتى عرفت أنَّ ما تُرجم إلى العربية هـو أقـل مـن نـصف المذكرات، وهو ينتهي إلى سنة 1939م، أما من هذا التاريخ إلى سنة وفاته 1973م فقـد أودع في جزأين آخرين بعد "الطفل"، و"الطالب"، وهما: "الكاتب"، و"الدفاتر"، وقد سـمى جزءا من "الكاتب" باسم كنت قد عرفته من قبل، ولم يشأ الله أن أقرأه، وهـو: "العفـن" (Pourritures)...

ومع سفري إلى قسنطينة، وهي المدينة التي عرفت الكثير من أحداث حياة الرجل، وهـي تعرفه ويعرفها جيدا، فهي القريبة من مسقط رأسه "تبسة"، حملتُ معـي الكتـاب لعلـي أطالعه في الطريق، أو قبيل النوم، وكان في حقيبتي ـ أو بالأحرى في جهاز الكمبيـوتر المحمـول ـ مـشروع "تفعيـل المرجعيـة الإباضـية الميزابيـة"... بعد اشتغالي في المشروع، وكتابة بعض فصوله، متأثرا بكتاب "فكرة الأفروـــأسيوية"، تحوّلت مذكرات ابن نبي إلى محور البرنامج اليومي، وقد هالني ما اكتشفت مـن معانـاة الرجل، مما لم أكن أعرفه من قبل... حتى صرت اليوم متيقنا أنَّ مالك بن نبي لـم يكـن يؤلف مقالاته، بل كان يعيشها بصبره كلمة كلمة، وينحتها من محنه وإحنه فكرة فكـرة...

Mokarabat

فيصدق – اليـوم – أن يقـال فيـه: الرجـل هـو الفكـر، والفكـر هـو الرجـل...
فمالك بن نبي ــ من خلال مذكراته ــ قد سُجن، وعذِّب، وحوصر، وأفقرت أسرته: أبوه، وأخته، وكل محيطه...، وسجنت زوجته مرات، وعرف "الهجرة" كما سماها، وهي محاولة الهروب إلى الخارج بالأرجل، وعانى الأمرين في سبيل نشر أعماله، وفكَّر مرارا في الانتحار، وكان معوزا منعت عنه كل أسباب الوظيف، وعرف بعض المناصب الشاقة التي تستدعي الجهد العضلي وهو المتعب المريض...

ولكن الذي أفرغ جعبته من الصبر، وجعله يدعو الله أن يستعجل الموت له، هو الهجران والحصار الذي فرضه عليه أبناء المستعمرات من العرب والمسلمين، بفعل "القابلية للاستعمار"، سواء بالتواطؤ مع المستعمِر، أو عن جهل وغفلة، أو لأمور أخرى لم يستطع تحديدها...

ولقد عانى الأمرين مع الحركات الوطنية بكل أطيافها، وعرف في "الزعامات" كلَّ معاني الخسة والرذيلة، وتيقن أنَّ أغلبهم طالبُ كرسيٍّ، وجلَّهم أخطبوطٌ يبتز الشعب ويغتال الأمل لمآربه الخاصة... وقلَّ منهم من مات مؤمنا بمواقفه، منافحا عن دينه ووطنه...، وهؤلاء عموما كانوا تحت وطأة الأيادي الخفية والظاهرة للاستعمار، بالتنسيق مع القلوب الحقيرة والمنافقة لأبناء المستعمرات...

ويكفي أن ندرك أنَّ الرجل، وهو مَن هو، قد عرف الجوع وشارف على الهلاك مرات، وقد قسم مع الطلبة الجامعيين غرفتهم وهو في الخمسينيات من عمره بالقاهرة، وقد أرغم على ترك عائلته سنوات وهو لا يعرف عنها شيئا ويدعو الله أن يكون قد رزقها الموت؛ "لأنه أرحم عليهم من الحياة..."

وقد شرع الرجل في تأليف "الظاهرة القرآنية" تحت قصف قنابل الألمان في الحرب العالمية الثانية، وكتب معظم مؤلفاته دون اعتماد المكتبات والمصادر؛ لأنَّه حرم منها عن قصد من قبل الداخل والخارج...

وهو الذي كتب بتاريخ 22 ماي 1958: "منذ خمسة أيام وأنا أحس الفراغ تحت قدميَّ، والضباب أمام ناظريَّ، والأسف داخل أحشائي..." إلى أن يقول: "كل مطلع شمس، في مثل هذه الفترة العصيبة عليَّ، أستيقظ من النوم لأقول: "هل هو يوم آخر"... لا أعرف

أحيانا ما هي شخصيتي الحقيقية: فأنا نقطة تَصارع بين جميع المتناقضات التي يمكنها أن توجد في إنسان على ظهر الأرض".

ويكتب في تاريخ آخر من دفاتره ومذكراته: "مرة تلو أخرى لا أجد السلام لي في هذا العالم، إنها الخيبة والشك في كل شيء...إذا لم تتداركني رحمة الإله فأنا ضائع جسما وروحا، مثلَ زورق في محيط تلهو به الأعاصير العاتية، متى تعرف طريقي نهايتَها إلى الجهة الأخرى من الحياة؟ يا ربِّ، امنحني بعض الأمتار، بعض السنتميترات... أقصِّر بها طريقي الشقية... فأنا متعب".

أنا لست هنا مهتما بعرض هذه المذكرات، ولا مولعا بالغرابة والترف الفكري، ولست بحاجة لأراكم حجم المعلومات، فالكتاب الأصلي كفيل بإعطاء الصورة الحقيقية لما أقول... إنما وددت أن أسقط ما قرأت على واقعنا اليوم... بعد مضيٍّ ما يقارب أربعين عاما على وفاة الرجل...

أردت أن أقارن بين ذاتي بكل حسناتها وضعفها، وهذه الذات التي خرقت حجب الكون، واستقرت في عليين، صابرة محتسبة... ورغم كل المعاناة التي لا تتحملها الجبال الشامخة، ولا الأكوان الشاهقة...

فالرخاء الذي يحيط حياتنا هو ولا شك نعمة من الخالق الفنان... لكن، للأسف إنه يترك قلمنا باردا مهزوما... يذره بعيدا عن واقع الحياة ــ كما هي ــ هو أقرب إلى ترديد الصدى، ومضغ الحجر، منه إلى تغيير النفوس، وإحداث الانقلابات الفكرية في دنيا الناس...

ما العمل، وأنا حائر في منعرج فكريٍّ لمَّا أجد له الجواب الكافي؟

ما العمل، وإشكالية تحويل العلم إلى عمل، والفكرةِ إلى فعل، تقضُّ مضجعي، وتذيقني العلقم آناء الليل وأطراف النهار؟

ما العمل، وفي تقديري أنَّ الأمة الإسلامية لا تزال تدور في دائرة مفرغة من المشاكل والمعيقات والأزمات... الذاتية والنفسية والداخلية... تحركها الأيدي الاستعمارية السياسية الخارجية...؟

وأعيد السؤال على نفسي آلاف المرات:

Mokarabat

ما هو خطي الفكري؟ ما هي رسالتي؟ ما هو منهجي؟ وما هي أفعالي؟ وما قيمة علمـــي؟ وما نسبة فعلي إلى فكري؟...

أعيش الفراغ الكوني، والأسئلة المحيرة، ولا أجد لها جوابـــا... وقـــد تعالـــت أصـــوات الادعاء، وكثر اللغط، واستَشْرَت الخطابةُ، وتعلق الناس ــ إلاَّ من رحم ربي ــ بالألفـــاظ والكلمات والأشكال والمظاهر، فأعرضوا عن المحتويات وعن حقائق الأمور والـــصدق والجهاد...

وتزداد هذه الحال استحكاما كلما تكالبت السياسة على الأخلاق، وكلما نهشت ذئاب الخيانة أرواح المغفلين، وكلما سادت القردة والزعانف والرعاع...

تزداد كلما صفَّق الجمهور للمسرحية، وتأخر زمن النصر الحقِّ، وخاب الأمل في نهايـــة النفق، وتيقن اللبيب بطول الليـــل وبـــشدة البـــرد علـــى عالمنـــا الإســـلامي الحـــائر... وقد ظننت أني أعيشها لوحدي هذه الغُربة، لكنني يوم كتبت "آلام التفكير" – فـــي موقـــع فيبكوس – بدا وكأنَّ العديد من الفضلاء يتجرَّعون علقم هذه الفتنة، ولا يملكـــون الوســـائل التي بها يعبرون، ولا اللغة التي بها يكتبون، ولا الفكر الذي به يحللون... فهم أحياء داخل جسم ميت، ومنتبهون بين شعب مرتاح إلى مميتيه...

فكيف نجمع شتات هؤلاء في صفٍّ واحد؟ وكيف نمتّن من الأطراف المتراميـــة هـــيكلا متينا؟ ومن لها؟ ومتى؟ وبأي منهج وفكر؟...

جُربت الثورات فلم تفلح... ذلك أنها زرعت الدم والقتل والإرهاب، عوض الحياة والأمـــل والعمل...

جُربت الكتب والمقالات... غير أنها خاطبت بعض الناس، ونبهت بعض الأفئدة، ولم تلج إلـــى قـــرارة النفـــوس لتغيرهـــا، ولا إلـــى أغـــوار العقـــول لتـــصقلها... جُربت المدارس والمعاهد... فأثمرت رجالا ليسوا الأسوأ في الميدان، ولكنهم يقينـــا لـــم يكونوا الأحسن والأجدر بصنع واقع مختلف تماما عن أي مرحلة تاريخية أخرى عرفهـــا العالم الإسلامي...

جُربت الحركات والجماعات... فجرَّدت أتباعها من الإحساس الحضاري العام، وبلـــدتهم بإحساس ذاتي مفرد، ينظر إلى العالم من كوة مغلقة، فيفسر الكون كلَّه من زاويته الضيقة،

Mokarabat

ويختزل الحقيقة فيما بلغه عن "زعيمه" أو "مرشده"... وهو قابع في الدهاليز وداخل البنايات... بعيدا عن سعة الكون والحياة...

ماذا بقي لنا أن نجرب، إذن؟

هل من الحكمة أن نتوقف هنيهة، ونفكّر مليا، ونعيد قراءة الواقع ببصيرة، ونجتهد في قراءة الأدلة والنصوص بوعي ودراية... ثم نقترح الدواء اللائق، والشفاء الرائق...؟

أولم يفعل ذلك بعض العلماء، منهم مالك بن نبي، فلم يفلحوا ولم يغيروا هذا الواقع التغيير المنشود؟

أقول، والله أعلم: الخرق أوسع من أن تخيطه إبرة واحدة، والجرح أعقد من أن يشفيه دواء واحد، والأرض أظمأ من أن تسقيه قطرة واحدة، والفؤاد أفرغ من أن يعمره أمل واحد، والفكر أجذب من أن تحييه فكرة واحدة...

ولنجرِّب جمع الطاقات جميعها على صعيد واحد... لكن شريطة أن يكون في خلية كلِّ طاقة ما يدفعها للاجتماع والتكتل تماما مثل الفطرة التي تحملها الطيور وهي تحلق في أسراب تُحسب بالألوف والملايين، في نظام متسق ومتناغم، ذلك أنَّ الفرد يحمل بذرة المجموع، وأنَّ المجموع يتكون من قوة الأفراد.

وحتى يتمكن أي طرف من الالتحاق بالمجموع يجب عليه أن يتخلى عن فكرة "أنا ولا أحد"، وفكرة "الصواب المطلق معي، والخطأ المطلق مع غيري"، وفكرة "بي يصلح الوجود وبغيري يخرب"... ففنَّ الاجتماع قد يكون أحيانا كسبيا ولكنه في كثير من الأحيان يكون فطريا ينْبئ عن معدن الفرد، مصداقا لقول المصطفى عليه السلام: "الناس معادن، خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام"...

فلتكن ــ أخي ــ من المعدن الصالح، الذي يزرع بذور الحضارة، بعد أن يستأصل سمات التخلف، غير مكترث ولا آبه بما يقال عنه أو بما يقال فيه... فالله سبحانه هو وحده الكفيل أن يبارك خطواته، وهو الذي لا يضيع أجر من أحسن وعملا، وهو القائل: "وقل اعملوا...".

فلنعمل إذن... والله الموفق للصواب...

Mokarabat